

عن الذي يأتي ولا يأتي للبياتي

بقلم خليل سليمان كلفت

الجديدة التي هي ايضا عودة « ولادة اخرى هو الموت ، هو الاياب »
(مرثية الى ناظم حكمت) في ديوان « النار والكلمات » والتي تشير
الى العطب الولادي والعودة الرمزية الى بطن الام كما في تحليلات
عالم التحليل النفسي أوتو رانك ، ويجد الموت مكانه في هذا التركيب
بما هو عودة الى الاصل ، وربما صنعت مقولة « العودة » خطأ متصلا
في شعر البياتي يشير الى انتصار الامس نارة والى الحنين السى
الطفولة او الريف تارة اخرى والى الحنين الى العراق والوطن العربي
تارة ثالثة ، واخيرا الى رغبة في تطهير البشرية من آثامها وأدرانها لتعود
الى حالة البراءة الاولى التي ترمز الى تحرر الانسانية من العبودية
التي تعاقبت عليها في أشكال مختلفة من الرق والافطاعية والراسمالية -
لتعود الى تلك الحياة الخالية من الصراع الاجتماعي في المرحلة البربرية
وان كانت الانسانية مسلحة هذه المرة بالتقدم العلمي الثقافي الكبير ،
وليس من أغراضها هنا الا ان اوضح بهذا الكلام عن العودة ان « من
يعود » هو هذا « الذي يأتي ولا يأتي » في صورة كانت قد رسمت هناك
بعيدة عن النضج والاكتمال .

ومن هذا اللقاء الاول بالذي يأتي ولا يأتي انتقل بسرعة - تاركا
تتبع الصور المختلفة في الدواوين التي جاءت بعد اباريق مهشمة -
الى مسرحية البياتي (محاكمة في نيسابور) للنتقي بالخيام ذاته وهو
ينظر الذي يأتي ولا يأتي وانه ليتكلم بوضوح شديد واني آتيت كئيرا
مما يقول هنا لاهميته في مقالتي هذا . يقول الخيام : « واني لارى بعين
الغيب هناك نجما ، هناك في السماء الفارغة سيطول انتظار الانسانية
له ، ولكنه سيهل ذات يوم وتملا أنواره الارض ، واني لاصلي من اعماق
نفسي لذلك اليوم ، لا من اجل نفسي انا ، فما انا الا شيخ منفي
هالك ، وانما من اجل هؤلاء المعذبين الذين طال انتظارهم دون جدوى »
ويقول : « ان نجم الثورة الحقيقية يلعب نوره وراء آلف باب من الانتظار
الطويل ، ولكنه سيهل ذات يوم ... » . وفي لغائنا هذا بالذي يأتي
ولا يأتي نتعرف عليه محمدا بوضوح (انه نجم الثورة الحقيقية) ولكن
طبيعة الانتظار وراء الابواب الالف هي التي تأتي غامضة مريرة ، فبعد
ان ينفي الخيام وتنفي كتبه ، وبعد ان يرفض الخيام وسائل الحسن
الصباح وهي القتل في سبيل الحياة يستسلم للخمر وللأمل بعد ان
كان بطلا ايجابيا فعلا .

وفي تلك المسرحية « محاكمة في نيسابور » التي صدرت عام
١٩٦٣ نرى سيزيف يدحرج صخرته الصماء في الوادي ، ويتأمل الخيام
ويرى شروطه في صورة بشعة (القطن تاكل لحم يدي) ، وياكل الخيام
حزنه وترسم المسرحية الالام والامال والوسائل : الالام مجتمع مريض متعفن
بحول بشره الى « نسخ مكرورة من كتاب اصفر » مجتمع يموت الانسان
فيه بالجان ، والامال في مجتمع يزرغ فوقه نجم الثورة الحقيقية ،
والوسائل ، تلك التي يعاقب الخيام على ارتكابها كما لو كانت جرائم
وهي اختراعه للتقويم الشمسي (العلم التطبيقي) واكتشافه ان الارض
ليست مركز الكون وان النجوم ثابتة (العلم النظري) وكتابتها الرباعيات
(الفن) ، وتلك الوسائل الاخرى التي يجرها النجم المنتظر وراه ذنبا
طويلا لامعا يحلم به الخيام وبشر به عندما تسحقه الشروط وترغمه
على تأجيل رؤاه ، والخيام يقول : « انا أمسكت بخيط مصيري هكذا
وجذبتة ، وها انذا أسهر مع قمر الدموع لابكي ، بكاء المقاتل المهزوم
الذي فجر انتصار الانسانية من خلال ليل هزيمته » . اما كتاب اقليدس

(واذا بنحيب واغنية يسمعان : « يا رب افتح
شفتي » ، حتى ان الاذن أحسست بالبهجة
والحزن يولدان توأمين في كل كلمة)
التشيد الثالث والعشرون - المطهر - دانتي

يقع الانسان أسيرا في الشرك وتحيط به الشروط من كل جانب
وتحدته نفسه بالفرار ولكنه يعي حقيقة ان لا فرار اذ يصيح به صدى
صوت طارق بن زياد : « امامك البحر ومن ورائك العدو بالمرصاد »
فلا يدري ماذا يفعل ؟ انه « مقاتل مهزوم » « محروب » وما عليه الا
ان ينتظر وهو في انتظاره كالمسائر على الحبل بله الواقف عليه ينتظر
نسرا يأتي ويأخذه الى حديقة يحلم بها ويعاني في كل لحظة مخافة ان
يقع في قاع لا فرار له ، ومن هنا تنبع مطهية التجربة التي تحملها
قصيدة « الذي يأتي ولا يأتي » لعبد الوهاب البياتي .

في القصيدة تقابل شخصا خصوصا يؤمنون بتحقيق الجنة على الارض
ويستعجلونها ولكنهم اذ يعون حقيقة انهم يذوون بما هم كائنات
متناهية فان الخاص التناهي في مقابل العام اللامتناهي يكاد يقلب العالم
في نظرهم الى عبت لا ينتهي لان النضال الذي لا ينتهي في سبيل
تغييره لم يبلغ بهم غير الجدار يرتطمون به فيتساءلون في مرارة عما
اذا كانوا :

كتاطح صخرة يوما ليوهنا فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل
وقبل ان نتكلم عن القصيدة نقوم بعملية تراجع نسجل فيها
لقاءات لنا سابقة مع هذا « الذي يأتي ولا يأتي » : ففي ديوان البياتي
« اباريق مهشمة » الذي صدر عام ١٩٥٤ رسم الشاعر في قصيدة
« في المنفى » صورة الانسان الذي يناضل كل يوم تحت الشمس ،
يمثل في نضاله أسطورة سيزيف التي لن يتحرر منها الا بالموت
« الصخرة الصماء للوادي يدحرجها العبيد - سيزيف يولد من جديد
من جديد » . والقريب ان سيزيف هذا يحلم بالماضي ولا يتطلع الى
المستقبل الا كزمن يعود فيه الماضي - الميؤس من عودته مع ذلك -
« تقضي بقية عمرك المنكود فيها تستعيد - حلما لماض لن يعسود ! -
حلم العهود الذابلات مع الورد » ويزايلنا الشعور بالفراشة اذ نصرف
ان هذا الماضي يكاد يصنع في وجدان الشاعر ما يشبه أسطورة العصر
الذهبي او الفردوس المفقود ، فقط لان الحاضر في وجدانه نكسة تزول
فتزول المأساة « بالامس كان لنا على القدر انتصار - كان انتصار »
(في نفس القصيدة) . وفي قصيدة « عشاق في المنفى » في نفس
الديوان نقرا هذا الحوار :

« - وهؤلاء

- مثلي ومثلك يحفرون قبورهم عبر الجدار

- مثلي ومثلك مقبلون على انتظار

- من لا يعود .

وربما كانت طبيعة الحنين الى الريف كما يستفاد من كتاب
الدكتور احسان عباس عن ديوان « اباريق مهشمة » (عبد الوهاب
البياتي والشعر العراقي الحديث) او طبيعة المنفى فيما بعد تلك المرحلة
السبب في ان يأخذ « الذي يأتي ولا يأتي » صورة « من يعسود » ،
فالعلاقة الأوديبية التي بين الشاعر والريف ثم الشاعر ووطنه العربي،
خلقت هذه الصورة التي تشير الى العودة المنتظرة التي تأتي بالولادة

وفخامة وجلال بالانسان الذي يناضل ضد الشروط التي تصنع ذلّه الاجتماعي الاساني وشيّد به وهو يواجه ذلّه الكوني الكبير امام الموت وتشيّد به في روعة البداية التي يتكلم عنها برشت في مقدمة مسرحيته « حياة غاليليو » وان كان الموت يدرك الكثير قبل ان يأتي « السذي ياتي » فانه يخرج لسانه للموت حيث نفى الذات في الجماعة وتنال شرف التضحية ومد خط النور - المصنوع من الدم الساخن - على اسفامته قليلا او كثيرا بغير ما تكون الطاقة قادرة على العطاء .

يقول سارتر في « الادب الملتزم » ان الشعر يحلق « اسطورة » الانسان بينما يحط النائر « صورته » ، بيد ان قصيدتنا هذه تغلق « الاسطورة » وبنيتها على « الصورة » التي نخطها وتأخذها نقطة انطلاق لها ومن هنا تأخذ القصيدة صفحتها كتهادة عصر .

وشهادة العصر لا تأتي من مرافب محايّد كمرافب آينشتاين بل من الانسان الذي يعاني عصره في شروطه الراهنة الانسانية التي تسبق اخطر تحول في تاريخ الانسان يبدأ بعده التاريخ الحقيقي للانسان ونعود معاناة الانسانية الاجتماعية الضخمة منذ نهاية المرحلة البربرية خيط النور الذي صنعه الدم ، وهذه المعاناة هي شهادة الميلاد التسي نحرها الانسانية لولودها الانسان الجديد .

وبالفرد القليل الذي يسمح به شكل هذا المغال أود ان الاحظ ان سارق النار الذي التقينا به في « اباريق مهشمة » يصنع هذا الخيط الذي يبلغ ذروته في « الذي يأتي ولا يأتي » في الجزء السادس عشر : « خيط النور » الذي اشار اليه في « ١٢ قصيدة الى العراق » عام ١٩٥٧ في ديوان « كلمات لا يموت » عندما قال « يا جسرنا الدموي ، يا خيط الضياء » . وفي هذا الخيط الصاعد اخذ سارق النار برومسيوس الذي ولد من سيزيف - هذا الذي وقع في الشرك غير واع هذه الحقيقة ، اخذ سارق النار هذا يعمق رمزه ويتقص رموزا مختلفة كالحلاج والمري ولوركا والخيام ، وهكذا تعددت وعمقت ابعاد سارق النار ، فهو شهيد يعطي دمه فترح ونحزن لان « الجرح لن يبرأ ، والبذرة لن تموت » (عذاب الحلاج ١٩٦٤) . والحقيقة ان روحا فوستية ايكارية تتقص سارق النار هذا في كل تعيناته اذ انه لا تحده حدود ولا يرى من خلال « ثقب الابرة » الذي تخلفه الشروط الاجتماعية ، الخلاص من هذه الشروط فقط بل يرى في فرح انتصارا كونيا عظيما يبلغ به غاية عظيمة من العلو .

بعد هذه المقدمة أبدأ الكلام عن القصيدة نفسها ولا بد من ان افتمل تقسيم العمل الفني الى عناصر تيسيرا لمهمتي :

والموضوع - كما اتضح من المقدمة - هو انتظار تحول عظيم يعصف بأدران الجحيم الذي نعاني فيه وخروج نيسابور الجديدة (جنة الارض) من هذا الجحيم ، وبهذا لم يعد الجحيم استاتيكيّا ثابتا يتحدث المرء عنه كوضع نهائي للانسان لان بذرة التحول فيه بدأت نمد جذورها في باطن الارض وبدأت ساق النبات تتقافز نحو السماء كما لاحظت من قبل في تحليل عنوان القصيدة . وفي مقدمة المطهر لدانتى ، في الابيات الاولى من التشيّد الاول ، يشرح دانتى قلع سفينة عقبريته تاركا ذلك المحيط من اليأس في الجحيم خلفه ، طالبا بلك المياه المقدسة التي سيخرج منها في الابيات الخنامية للمطهر مولودا جديدا طاهرا ومعداً لان يصعد النجوم . وقول Dorothy Sayers عن مطهر دانتى انه يكون حالة امتحان a test case يصدق على تجربة « الذي يأتي ولا يأتي » اذ ترك البشر الفاشليين المهزومين المحروبين الى البشر الذين يتسلقون الاسوار و « يحطمون بيضة النسر ، ويولدون - من زبد البحر ومن فزارة الامواج » . والقصيدة تعرض الانسان في نهار انتصاره وفي ليل هزيمته في ذلّه الاجتماعي والكوني في الهزيمة قبل « الذي يأتي » وفي ذلّه الكوني في انتصاره بعده .

وأعتقد ان هذا يكفي للانتقال الى شكل القصيدة ومحاولة استيعابه ، وواضح ان مقالا يناول شكل قصيدة طويلة كهذه جدير فقط بان يذكر ملاحظات حول القصيدة في شكل بعيد كل البعد عن الدراسة :

- رمز التقدّم - الذي رآه من قبل ان نمثد اليه يد غجرية جريسة لننزع بعض صفحاته « الصفحة العشرون تاكل النار اطرافها » فانه يقول عنه « كتاب افليدس وغيره من الكتب سوف تعاد كتابتها بحروف جديدة » .

يبقى لنا هذا الانتظار الفارغ « كفراغ أيام الجنود العائدين من القتال » كما يقول الشاعر في قصيدة « الملجأ العشرون » في ديوان « اباريق مهشمة » وعندما نأمل - من خلال خيام « محاكمة فسي نيسابور » او غيره من شخوص فصائد البياني الاخرى - هذا الانتظار الذي يعيشه البشر ويحل الموت بهم زرافات ووحداً ويمضون بظلالهم الهاربة « فالناس يمضون ولا يأتون » كما يقول في قصيدة « الى ارنت هيمفواي » في ديوان « النار والكلمات » ، نجد ان الام هسؤلاه الذين يموتون نتجم عن انهم يموتون دون ان يفعلوا شيئا من شأنه ان يطرد ذره حميرة من صخرة سيزيف « اكذا نموت بهذه الارض الخراب ؟ - ويجف فنديل الطفولة في التراب ؟ - أهكذا شمس النهار - نخبو وليس بموفد للقراء نار ؟ » (قصيدتان الى ولدي علي) في ديوان « سفر العفر والثورة » ، وعندما نتكشف هذه الام وتصنع كابوسا مفزعا ناكل الشكوك عقل الحيام ويمسذبه الخوف من ان تكون هذه المفاساة كلها اواماما باطلة ، وهو يقول : « وهذا الشاهد الماكر يطمس الى الابد حقيقته انا كنا على الارض » ، ولكن كما يضع مارتن هايد جريده على حقيفة الوجود من تجربته مع المدم في مقاله « ما الميتافيزيقيا ؟ » توفر هذه التاملات للخيام الرؤية التي تضع يده على الحقيقة المنتظرة (ذلك النجم) ويصرخ الشاعر في قصيدته « مرنية الى مهرج » في ديوان « سفر الفقر والثورة » : « أيعت الانسان ؟ - في هذه المقبرة الضائعة المكان » . ويعود الخيام الى أشياء الطفولة الجميلة التي ماتت مثل رحيم ويأسمين فينحسر عنهما ظل الموت الذي لا يعود غير ضفة ثانية لنهر الحياة ، فياسمين - التي فتلتها الطساعون - لم تمت ، ورحيم - الذي قتل بضربة سيف - لم يموت ، وتبقى الصورة التسي كانت على غلاف كتاب مصور وهي لسلطان على صهوة جواد يعمل سيفه في جسد احد الكفار - والتي كان رحيم على استعداد لدفع أي ثمن في مقابلها - تبقى هذه الصورة وثيقة أحنجاج ، وصيحة امل ، وصرخة انبعاث ، واسطورة النضال هذه سوف تنصدر القصيدة الكبيرة « الذي يأتي ولا يأتي » بعنوان « صورة على غلاف » .

وعنوان القصيدة نفسه يحمل بقوة جوهر الانتظار المؤلم الحزين ، فالعمل المضارع « يأتي » - بدون سين او سوف - يعطي انه بدأ يأتي أي الولادة الدينامية والخروج ، انه ليس طيرا من جنس اخر يقبل من عالم اخر لكنه يأتي من هنا ، يخرج مما نحن فيه ، انه يولد ولا تكاد نحس بميلاده ، انه (يمر من السحاب) ، ولكن الفعل المضارع (لا يأتي) في حالة النفي يحاول ان يعيد ذلك الانطلاق الى المقدم ويحبسه في ظلماته ، انه لم يقطع علينا الطريق بالياس (لن يأتي) ولكن هذا النفي الخالي من تحديد الزمن يوفر الشك العميق في « يأتي » وقد يوفر الكفر به الى حد كبير وسوف نرى كيف ان خصائص العنوان هذه هي خصائص القصيدة .

ومن جوهر « الذي يأتي ولا يأتي » يتولد الايقاع المطهري الذي اشرت اليه في مقدمة المقال ، فالحاضر التمس الذي نريد ان نتجاوزه الى مستقبل عظيم يشير الى الانتقال من الجحيم الى الفردوس ، وفي المطهر بينما تطرب قلوبنا التي تهفو الى الفردوس يعذبنا الرعب ونخاف ان تستحيل الامال التي اقمناها اواماما اخترعها جنوننا واختلفها اختلافا فسقط ثانية في الجحيم (جحيم نيسابور) ويموت ذلك الذي بدأ يأتي وتسقط اجنحته قبل ان يكتمل نموها . وسوف نرى كيف يخلق هذا الايقاع توترا خاصا عميقا يعيش في كل الصور التي تقدمها القصيدة وكيف اننا نظل خائفين طوال القصيدة خشية ان نكتشف فجأة ان هذا الذي يأتي قد استحال الى حمل كاذب تحلل به امرأة عاقر نفسها ، ولكن تأكيدات الرباعيات وامل الجزء المنون « الصورة والظل » ، الى كل الامال والتأكدات الايجابية في كل مكان في القصيدة تشيّد بقوة

يذكر القارئ ان الخيام المنفي عجز عن الفعل وركن الى التامل في انظار (كفراغ ايام الجنود العائدين من القتال) وقد نتج عن هذا ان القصيدة اخذت شكل التامل في تاريخ الفعل ونماجه وآلامه وليس شكل الفعل ، ومن هنا نتج شكل الحوار الذي يتكلم فيه انخيام بضمير المتكلم ثم يخاطب بضمير المخاطب ثم يتحدث عنه بضمير القسائيب ويستك الحوار ويأتي التامل الذي لا نرى الفم الذي يحدث بكلماته وينكسر عنق الزمن الراسي .

وقد بدأت القصيدة بمقدمة عرضت علينا صورة الغلاف الذي كان رحيم مولما بها ومات قبل ان يسعد بتحقيقها وتمقص الحياة صورة الغلاف (تلك الاسطورة التي ظلت متحجرة تنتظر عصا موسى) ونرى سارقي النار اعزل الجياع يتسلفون الاسوار ويذفون الكفار وتنهار القلاع تحت ضرباتهم والفجر في الدروب ، ونرى في الصورة المخاوف تيش فسي قلب الامال تقطع اوتار النشيد الذي يحمل البشري (- مولاي ! قال النجم لي ، وقالت الافداف - باننا ممثلون فاشلون فوق هذا المسرح المهيار) ونحذف في الصورة فنرى الماضي والحاضر والمستقبل ونرى الطفولة تصحى بسعادتها بل بخبزها ودونها من اجل عيون المدينة الفاضلة البعيدة ، ونساور يهيق الفزاة في وجهها المجذور ، والقمر يحلم في ياس ، بطن الحوت والارنب نهشه انكلاب الموحشة ، ولوركا يجز واقفا للموت ، ونرى سارق النار يشيب شعره ونطمس التجاعيد وجهه ، ونرى الذي « ياتي ولا ياتي ، اراه مقبلا نحووي ، ولا اراه - تشير لي يدها - من شاطئ الموت الذي يبدأ حيث تبدأ الحياة » ، ونرى البذور التي تنمرغ في ألوحول تفتح عيونها في باطن الارض وسق دربها للنور والهواء ، مقطوعة اليدين يعلو وجهها التراب في صورة عشار على الجدار ، ونرى اورفيوس يبحث عن محبوبته عائشة في العالم السفلي ففر من عينيه في تلك اسرديب المظلمة ، ونرى سارق النار يباع في ازاد « من يشترى عبدا طربوا ؟ » ويطلقنا الرعب من ذبولنا امام الموت يعيت في الارض فسادا ويرطع كيفما يساء ، ونرى سيد الكون في ذلة يموت كالكلب بالجان « يحوم حول سوره عريان » فقد حتى ذاته « فاكهة محرمة » وترفع انفا الى السماء عندما يومض امام عيننا وهج خيط النور الذي يبعث من دم الشهداء الذين لا يحصيه عد ، ويدور الاله الاخر ليقلل القوس عندما ننادي من أسفل السلم « يا ربا » سائلين ان تتجمع اجزاء الصورة المزفة حتى ينحسر الظل عن الصورة ويندك جدار الزور .

من الفقرة السابقة نستخلص هيكل القصيدة وهو ببساطة الصورة التي على الغلاف نراها مجمعة في اللحظة الاولى ثم يصيب لسحر أعيننا فتوغل في اجزائها انديفية ومنعرجاتها المشابكة ونسمع ابعابها العزينة نارة افاضية اخرى ، المساعدة نارة الهابطة اخرى ، الشامخة نارة الخائفة اخرى ، المتورة بطبيعة التجربة دائما والتي هذفت ارواحنا المزفة الى ناملات الرباعيات التي نخرج منها وقد حفسرت الصورة بعمق في ارواحنا لتسلطنا الى دروب نسلكتها وقد تسللت العظام خارجة من هياكلنا وتخذلنا ركبنا الى ان نثبت العظام نانية على حين فجأة اذ نسمع قلوبنا تصلي بخشوع الى خيط النور وتتمنى لو قدر لها ان تمده على استقامته بفدر مشرف .

والصورة تعرض نفسها من خلال شخصيات « تحمل رموزا » لا تلبث ان تذوب في رموز جماعية ، فشخصيات الخيام وعائشة ولوركا وسفراط ، وشخصيات الاساطير الفرعونية والبابلية (عشتار وتموز واوزريس) والاغريقية (اورفيوس) والهندية (بودا) والشخصيات الحيوانية (الكلب الجائع والارنب المذخور) وشخصيات الرموز الجماعية الجزئية (المنفي) وكل تعينات سارق النار وسيزيف الواقع في الشرك لا تلبث ان تذوب في الرمز الجماعي الكبير « خيط النور » وتقبلها الشخصيات المعارضة (الشيران والتغلب وشهريار والتعبان وكلاب الطردية) التي لا تلبث ان تستحيل لبنات في جدار الرمز الكبير المعارض « الموت » ، وهنا يقابل رأسا الرمزين ويتناطحان . ومن اهم صفات الشكل في هذه القصيدة هذه الحرية الضخمة

التي نمارسها في براكيب صدرها الجزئية ، وقد رأينا في دواوين اخرى للبياتي هذه السرية التي تضع كلمة بجانب الاخرى فنتج عن اجتماعهما انفجارات خصبة ، ولتأمل « وجنة الحرف » لا اذكر اين ! و « اعناق الكلمات » في قصيدة (الى نوار اليمن) « يا عالما عات به التجار والساسة ، يا فصائد الطفولة اليتيمة » (موت المنفي) ، « فالجراند - كنبت : ان السماء - امطرت في ليلة الامس صفادح » (شيء عن السعادة) ، « ويا مناديل اليباب » ، « مناديل رحيل » (فصيدنان الى صلاح جاهين) وغيرها ، بيد ان دراسة مثل هذه الصور ليست من افراض هذا المقال .

ومن الرموز السخية الفنية في القصيدة التغلب المتجوز الذي يرمز للموت ، فقد اخذ صورة مركبة بفجر الرهبة والسخرية فسي آن واحد ، والرمز موفق به ورة ندعو الى العجب ، والتغلب السخي تقترن به صفات المكر والخداع في نفاذات كل الشعوب تقريبا موفق حقا كرمز للموت ، ليس فقط في موقفه العدائي من الانسان وانما ايضا في اشتراكه مع الموت - هذا السوس الذي ينخر كل شيء ويختفسي تحت كل حياة - في خداعه ومكره وغدره . وفي جزء الموت من القصيدة يعتمد الشاعر الى كل عنصر من عناصر الحياة يقلبه ليجد الموت قد اخذه كهفا ، انه مثل الاله البحري اليوناني القديم بروبوس Proteus يتمص الماء والهواء والربة والنار وياخذ كالحرباء الوانا مخملفة وكالسحاب اشكالا مخملفة ، وهذا هو « التغلب المتجوز - المتلحي بالورق الاصفر والرموز - المرتدي عباءة الليل ، وفوق رأسه طافية الاخفاء » ، يفترس انعداري والنعاج والاطفال ، يفدر بالعشاق ويلعب الترد مع الشيطان « ياخذ شكل هرة سوداء » « يطارد الفراخ والاستباح - يمارس السحر بلا شعوذة » « يقرأ في كل اللغات كتب الفلسفة الجوفاء - يرمي بها للنار - يزيغ النفود والافكار - يندس في قلب المنفي ، يقطع الاوتار - يذل من يشاء » « يفدر بالجلاد والصحية » « اخرج لسي لسانه وسار - ينفخ في الزمار - نبعه عجايز القرية والاطفال » .

من كل هذا تنتقل الى الزمن في القصيدة ، وليس كلامي هنا عن الزمن الروائي فيها ولكن عن هذا الوعي الحاد الذي في القصيدة في تحديدها هو زمني في مكانه من الابدي ، وقد رأينا هذا الوعي الحاد من قبل في قصيدة (موعد في المقرة) ديوان « اشعار في المنفى » اذ يقول الشاعر : « صاح هذي ارضنا من الف الف تشهد - وعليها النار والعشب عليها يتجدد » . وهذا الوعي يبلغ أقصى حدته في « ١٩ رسالة الى ناظم حكمت من ستالينو » في ديوان « كلمات لا تموت » في قوله : « وكنت افكر بملابن الخيانات التي ارتكها الرجال والنساء منذ ان ولد كوكينا الارضي » ، ولا شك ان مثل هذا

مواقف

سلسلة دراسات رائعة بقلم :

جان بول سارتر

في ست حلقات صدرت كلها

٥٠٠ ق.ل	١ - الادب المتترم
٤٠٠ ق.ل	٢ - ادباء معاصرون
٤٠٠ ق.ل	٣ - جمهورية الصمت
٤٠٠ ق.ل	٤ - قضايا الماركسية
٤٠٠ ق.ل	٥ - المادية والثورة
٣٥٠ ق.ل	٦ - جمهورية الصمت

منشورات دار الاداب

الرحيل

رؤيا الافاق تقيم بعيني ولا اجسد
 دربنا عبر الوطن
 دربي .. والاشواك تحف به
 وبه تنهداً حدود الزمن
 وبطاقات السفر الباهية
 تقننات العمر ، وتقذفتني
 عبر بحور ، وصحاري ، وفري عجفاء
 عبر قناد الارق
 وسهادي فسي تيسه الافق
 لا طيف ، لا نجم ، لا وهج صباح
 يا ليل الغاب الافريقي
 لا الدرب الاخضر ، لا زهو الاعشاب
 لا الرعد ولا قرع طبولك حول النيران
 لا اللحن اللاهث كالبركان
 في ليل « البنجر » .. في تيه طريقي
 يزرع في دربي نجمة ليل
 وينير الباسور الازرق
 فلعلي اقرأ .. طيف رسالة
 بعض سطور ... رسالة
 همس حنين ، .. ورسيس نداء
 يا ليل التيه ، ويا ليل منفاي
 لم يبق لذي سوى عود ثقاب
 وبقايا حلم .. وسراب
 تقننات العمر وتقذفتني
 عبر حدود الزمن
 عبر بحور ، وصحاري ، وليالي سوداء
 وغيبس لا ادريه
 وسؤالسي الحيران
 عبر دروب التيسه
 لا ادريه ... فلقد آن رحيلي
 يا الف سؤال .. وسؤال

برلين الشرقية كاظم السماوي

الوعي الضرب بالزمن نتاج معاناة عميقة تلد فلما غريبا يجعل الشاعر
 يحاول الإمساك باللحظة وتحديد مكانها في بيار انزمن الدافق في
 لا بداية ولا نهاية ، وقد انتج هذا الوعي الحاد في قصيدة « الذي يأتي
 ولا يأتي » فلما اكسب كل شيء نوتراً خاصاً هو روح العمل كبله ،
 ويدرك الفارئ كيف انه كان يحاول الإمساك بالظلال الهاربة السبي
 نقلت من يده في حزن صامت نزيها بنات الماء . وعبارة مثل « ابع
 موبها » وأخرى مثل « فزورك الابد - مضى غدا ، وعاد بعد غد » ولا
 سيما الاولى نجسدان هذا الوعي بوضوح ، ولا شك ان هذا التسوع
 من الوعي بانزمن يعطي شكل الأمل انذي وردت به القصيدة انطلافا
 ضخماً وتوبراً عجيباً يهتز فوفه الانتظار بعنف . ومن اروع تلك الصور
 التي تمثل هذا الوعي ايضاً ظلال عائشة التي تسحب إلى الخلف
 البعيد بقسوة وتلك العبارة التي تكررت اكثر من مرة وهي « أم
 العماد - تفرق في ذاكرة الاحفاد » .

ان لنا ان نتحدث عن المضمون الذي توفره اتفه بيده : ان القصيدة
 الجيدة تسيد بالانسان في ذهنه الاجتماعي والكوني وترد له كرامته
 وتزيل عن وجهه دفعة النل والمهانة ، وهذا ما فعله قصيدة « الذي
 يأتي ولا يأتي » فقد عرضت علينا الانسان الاعزل الجائع الذي يدثع
 كل الالام والاسجون والاصفاد ليحصل على شهادة ميلاده كإنسان كريم
 في هذا الكون ، وفي جزء انوريت نرى الانسان وريث هذا العالم « يخوم
 حول سورة عريان - فاكهة محرمة » منسجماً مهاناً ، ذاته محرمة عليه
 من « مدن بلا ربيع مظلمة - مفتوحة ، مستسلمة - بحيا على
 العتاق » لاهنا على فارعه الطريق « يبحث عن وظيفة شاغرة في صحف
 الصباح » تدير الارفام رأسه الذي فرغ حتى من الاحلام « يفرغ فتم
 حدائق المساء - حياته الجوفاء » ولماذا لا يسميه باسمه ؟ انه كلب
 « يبحث عن مكان - يموت فيه صافراً ، كالكلب ، بالجان » .

ولن خيط النور ينتصب في مقابل صورة الانسان ملك ، سامع
 الصق ، ويرينا ما نعلمه الايام للسنن من انصار عظيم عندما « يحطون
 بيضة النسر ويولدون » ، من كل هذه الاوجاع التي يكابدها الانسان .
 وخيط النور يبرش « بالذي يأتي » . ولا أعفد ان هناك ما يسرر ان
 نجعل « الذي يأتي » شيئاً غامضاً كما قد يفهم من كلام الدكتور احسان
 سبس عنه في عدد الشهر المماز (مارس ١٩٦٦) من مجلة الاداب ،
 فهو كما قلنا ذلك النجم المنظر الذي تكلم عنه الحيام بوضوح
 شديد في « محاكمة نيسابور » .

وبمجيء « الذي يأتي » يخيل الى المرء ان خيط النور سوف
 يستحيل الى بطولات في ذاكرة الانسان ، فقد انتهت كل آلامه ، الا ان
 السحدي العظيم عندما يعود الانسان الى صراعه الاصيل مع الطبيعة ،
 مو الموت الذي يخرج لسانه للانسان في هزيمته وانتصاره ويحكم عليه
 بالانهاء في اعظم ساعات فرحه ، وهكذا نهنا القصيدة وجها لوجه
 امام النل الكوني .

ما موقف الانسان من هذه المهانة الكونية ؟ ان هذا السؤال هو
 الذي يوجه حفا الى القصيدة . فالرد على المهانة الكونية لا يكون
 الا بتأكيد الحياة في اطلاقها ، الامر الذي يقضي على سؤال يقول .
 « ولماذا لا ينسحب الانسان من الكون طالما ان النل يلاحقه في كل
 الاحوال ؟! » .

والقصيدة وان لم تقم بهذا التأكيد على نحو مباشر الا انها توفر
 في النهاية حرية كبيرة نصل اليها فتقذف بنا مرغمين الى تأملات
 من شأنها ان تزيد من حدة ايكاريتنا التي تتخطى حتى شرط الموت من
 ناحية وتؤكد ان معاناتنا تبدأ من وجودنا الذي هو اكبر واشمل منها
 واعتقد ان تبرير الحياة في مقابل الموت تبريراً واضحاً هو الذي
 يعطي لخيط النور قيمته ، فشهداء الانسانية انما يحاولون - كما
 يقول تارو في رواية الطاعون لالبيز كامو - ان يحفظوا القداسة في
 كون لا اله فيه وليس هناك ما يدفع الى بلوغ تلك القداسة غير الافتناع
 التام بالحياة .

خيل سليمان كلفت

القاهرة